ظاهرة الغزل في شعر عمر بن أبي ربيعة حسب الموروث التراثي

المحاضرة الأولى للدراسات العليا

الدكتوراه/ أدب

للعام الدراسي ٢٠٢٣-٢٠٢٤

من إعداد الباحثة

إسراء طالب محمد

بإشراف

الأستاذ الدكتور

لؤي صيهود التميمي

١٤٤٥هـ

٢٠٢٣م

يعد عمر بن أبي ربيعة اول شاعر عربي قريشي يحسب له الفضل في تطوير الشعر القريشي ، فهو حالة وظاهرة فريدة في الشعر العربي القديم أذ جاء بنمط جديد من الغزل لم نعهده عند الشعراء قبله، فغزله عبارة عن قصص طريفة لاهية تحكي مغامرات غرامية مرحة صورت جانب من جوانب المجتمع الحجازي المتحضر في مكة، ولا نستطيع أن نفصل بين عمر وغزله دون أن نتكلم عن الاثنين معاً، فالغزل كل شيء في حياة عمر وفنه، لأجله عاش ولأجله نظم، ولعل خلوده في دنيا الادب تناوله غرضاً مستقلاً قائماً بنفسه تارة في قصائد طويلة وغالباً في مقطوعات تشكل كل منها وحدة موضوعية تقص حادثة عارضة أو تروي خبراً طارئاً في سبيل شكوى وعتاب أو نصح واعتذار أو مراسلة ورجاء أو مصالحة ومقابلة أو زيارة ومغامرة أو غير ذلك مما يكثر وقوعه بين المحبين.

إن البيئة التي عاش فيها عمر وعصره المعرف بكل ادوات الحضارة والوانها قد منحاه عقلية خاصة وموهبة فريدة في الشعر فكان المجتمع المكي ينعم بشيء من الحرية وفرتها له اسباب الحضارة الجديدة، وهذه البيئة قد خلقت عمر خلقاً نسائيا حتى كن ينجذبن اليه ، فوضعت عمر وغزله في تغيرات جديدة من الترف ورفاهية وغناء ومن تحرر المرأة الأموية واختلافها عن اترابها من نساء الجاهلية ناهيك عن منزلة عمر واسرتهِ التي تتيحان له الاختلاط بكثير من أسر مكة .

الغزل العمري : تعبير عن طبقة متحررة منطلقة تضع شهواتها وملاذها فوق كل شيء حيث أنها لم تنس حضها من الدنيا ولكن نست نصيبها من الآخرة، وتعلقوا هؤلاء الشعراء بأكثر من واحدة اضافة إلى نزعة الاستعلاء التي تستحوذ على نفوسهم، وسمي هذا النوع من الغزل بالعمري نسبة عمر بن ابي ربيعة فقالوا الغزل العمري وسمي أيضا الصريح والاباحي والحضري ودعاه طه حسين ((غزل المحققين)) لأنهم اهتموا بالناحية العملية من الحب.

فقد كان طه حسين ان يقابل بين عمر بن ابي ربيعة وأي شاعر آخر فقد جعله بإزاء شاعر الفرنسي (الفرد دي موسيه الذي انتجته الحضارة الفرنسية) ونرى في ذلك شاهداً على عمق الأثر الحضاري في شعر ابن ربيعة وأثره في التراث العربي ويرجع هذا الأثر إلى خصائص تجديدية في القصيدة العمرية منها: محور الغزل هو عمر نفسه وعشق النساء له ومن هنا كسر المألوف واسقط في اثناء ذلك كل ما يصور المرأة المعاصرة له في مكة والمدينة بواسطة هذه الأحاديث التي يجريها بين النساء ، من ذلك قوله:

قلن يسترضينها منيتا

لو اتانا اليوم في سر عمر

بينما يذكرنني ابصرنني

دون قيد الميل يعدو بي الاغر

قلن تعرفن الفتى ...قلن نعم

قد عرفناه وهل يخفى القمر

يصفن حسنه البديع وما يتألمن به من هجره وصده، مشغولات به ،هائمات في جماله ومن هنا انقلبت موازين الغزل فتحول من تغزل بالمحبوبات إلى التغزل بالذات.

ومن هنا، يمتاز عمر بقدرته على وصف المرأة وعواطفها ونفسيتها وهواجسها وانفعالاتها، وميلها إلى الحب والغرام ، ومنا هنا درس شوقي شخصية (عمر بن ابي ربيعة) فاستفاد من علم النفس ووقف عند ظاهرة جديدة في الشعر العربي التي جاء بها عمر وهي تحويل الغزل من المرأة إلى الرجل ، فالمعهد هو أن يتغزل الرجل بالمرأة لا العكس كما حدث مع عمر الذي اصبح هو المعشوق لا العاشق وفسر الناقد هذا التحول بان عمر كفلته امه بعد موت ابيه فقامت على تربيته ، وتعلقت به بوصفه وحيدا وجميلا واغدقت عليه من فيض حنانها ودلالها فانعكس ذلك اعجابا بنفسه في شعره، فالنساء هن اللواتي يطلبنه ويعشقنه ويرغبن في وصله وهذا الإعجاب الزائد بالنفس هو ما سماه علماء النفس بـ(النرجسية) .

كسر المعيار الحقيقي المتعارف عليها من خلال محور الغزل البوح الجميل وهو من مظاهر التجديد في قصيدة الغزل من خلال التعبير عن عاطفة المرأة اتجاه الرجل ومحاولاتها التودد اليه بل التخطيط للقائهِ فإنه منزع جديد مبتكر لم نعهده عند امرؤ القيس ولا عنترة ، نتأمل قصيدة (بتنا بأنعم ليلة):

قالت لنائلة: اذهبي قولي له

إن كان أجمع رحله اصحابهُ

فليبق بعدهم لدينا ليلة

فله عليّ بأن يجاد ثوابه

فيأتيها جوابه:

قلت: اذهبي قولي لها قد طالما

حسبت لديك على الكلال ركابه

بتنا بأنعم ليلة وآلذها

للنفس ما سر الصباح حجابهٌ

قالت موكلة بحفظ كلامها

لمعلم حاط النعيم شبابه

فصور بذلك عمر مشاعر المرأة المتلبسة بالرجاء والرغبة والخوف والصبابة، فأن التحرر والحضارة حولت دور المرأة من مطلوبة إلى طالبة تكشف عن رغباتها وميولها بأسلوب صريح لم تعتده العرب ، وهذه الخصيصة من ابرز سمات الغزل في شعره وفي صور قلب الموازين وكسر المألوف وهو ان الهجران يكون من قبله وليس من المرأة ((الصورة معكوسة)) فالمرأة هي التي تشكو وليس هو ، يطلب عاشقته الا تبوح بأسمهِ، من ذلك قولهِ في قصيدة (ابصرتها ليلاً) :

قومي تصدي له ليبصرنا

ثم اغمزيه يا أخت في خفر

قالت لها قد غمزته فأبى

ثم استطرت تسعى على أثري

فالمرأة هنا مقبلة على الرجل بأكثر ممكن كانت تقبل عليه المرأة في الجاهلية فهو لا يشكو الغرام والعشق بل محبوبتهِ فهو يصور عفتها و جرائتها في وقت واحد

– ومن خصائص التي يخالف بها طابع الغزل العربي كله الا ما يأتي نادراً، طابع القصص والحوار وهذا طابع يصور بصور دقيقة طابع المعشوق لا العاشق فإنه اتي النساء في شعره لا ليثبتن بتاريخ الحب ولا ليصف جمالهن ولا ليشكو هجرهن ويصف آلامه بل ليعبر عما ينفث من لواعج الحب فيهن ويصف حسنه البديع ، فالحوار يقضي إلى تشكيل مشهد قصصي أو إلى بناء قصة غرامية لها شخوصها وحدثها بدايتها ونهايتها فريادة عمر تبرز في استغلال هذا الحوار وتحديدا في تجديد بناء القصة العربية وفي إبراز شخصية المتكلم نفسيا وتحديد اللغة فالنسوية يشكلن عماد مغامراته ومعجمه اللغوي فهو اول من اختص بفن الحوار الشعري واول من جعله من مقومات فنه الأساسية.

تتجلى سمة الحوار بصور مختلفة منها((الحوار المباشر مع الحبيبة)) وهذا النوع يمدنا بمفردات وتعابير خاصة بالمرأة ولا يمكن التصور أنها تصدر من الرجل يقول عمر ناقلاً بعضاً من حديثه مع حبيبتهِ :

فلما دنا الاصباح قالت فضحتني

فقط غير مطرود وان شئت فازدد

ويقول في قصيدتهِ (آمن آل نعم):

وقالت وغضت بالبنان فضحتني وانت امرؤ ميسور ام أمرك أعسر

نلاحظ في البيتين السابقين الحوار المباشر فتردد على لسان المحبوبة لفظة (فضحتني) تحذيراً وتحوطاً ولوماً ايضاً ولن نلاحظ ورود هذه اللفظ على لسان الرجل فهي تشي بطبيعة عالم المرأة واجوائها فالحركات المصاحبة لقول هذه المفردة تستحكي مشهدية الحدث وتنقل ما جرى بدقة عالية وكذلك فإنه مشهد واقعي محض في لفظه وصياغته.

وهذا الحوار القصصي في شعره وتصويره المشهد الواقعي كما هو يجعله ينتمي إلى المدرسة الواقعية بالرغم من إنه شاعر متفرد الشخصية فهو مؤسس المدرسة الواقعية كما وصفه شوقي ضيف وان سبقه امرؤ القيس والذبياني وهذا الرأي جاء كرد على اللذين لم يقولوا بان له مدرسة أو مذهب .

-لم يختر نسائهِ من الطبقة الفقيرة بل هو يعمد إلى المرأة الحرة ، لذلك ينتظرهن في مواسم الحج وكذلك نساء الأسر المنعمات اللاهيات بمجالس السمر وذات النسب الشريف، من ذلك قوله:

وطافت بنا الشمس عشاء من رأى من الناس شمساً بالعشاءِ تطوف

أبو أمها أو في قريش بذمة وأعمامها إما نسبت ثقيف

ولعل الهدف من هذا هو أن لا يقل من تشبب به هن من النساء الإماء من الجواري- التي كثرت وجودهن في العصر انذاك بل هن ممن يحاطنَّ بالخدم ويظهر عليهن اليسر والترف .

ومن هنا نخلص إلى ثلاثة اشياء أمتاز بهن عمر بن ابي ربيعة عن بقية الشعراء الذين تعرضوا لوصف النساء:

١-تتبع الشيء ويفصله تفصيلًا دقيقًا، ويكرره فيطيل أحيانًا ويجزئ أحيانًا.

٢- جمع من شعر ما تفرق في شعر غيره فكان فيه العوص عنهم جميعًا، وليس في غيره عوض عنه، وحسبك أن ديوانه المشتمل على خمسٍ وثلاثين وثلاثمائة قطعة ليس فيها قطعة واحدة في غير وصف النساء والتشبيب بهن.

٣- ابتكر في شعره أسلوبًا جديدًا، طريقة امتاز بها عن غيره ، ألا وهو حديث صاحبته مع جواربها أو صديقاتها، وفي أثناء هذا الحديث بكشف لنا عن مشاعر صاحبته إزاءه، كما يكشف لنا عن أفكار المرأة في مجتمعه.

المصادر

١-شعرية وصف الحدث في شعر عمر بن أبي ربيعة، م.م. ملا عبد الفتاح سعيد، جامعة الموصل، مجلة أبحاث التراث، كلية التربية الأساسية، ع (٣)، لسنة ٢٠١٩م.

٢-ملامح من التجديد في غزل عمر بن أبي ربيعة (دراسة نقدية)، د. منى محمد عبد الله أبو هملاء، جامعة الأزهر، (بحث)، ع(٢٢)، ٢٠١٨م.

٣-ديوان عمر بن أبي ربيعة، د. فايز محمد، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٩٩٦م.